

إشكالية الهوية الثقافية في الجزائر

أ/ عميرات محمد الأمين

جامعة تلمسان

مقدمة:

"كل إنسان مثقف، وإن لم تكن الثقافة مهنة له ذلك أن لكل إنسان رؤية وخطأ للسلوك الأخلاقي والاجتماعي ومستوى معين من المعرفة والإنتاج الفكري"¹.

الهوية كإشكال لدى النخبة المثقفة، أو أزمة الانتماء لدى النخبة الجزائرية من الإسهامات الأولية لمفهوم النخب المثقفة كأداة تحليل للدفاع الثقافي في الجزائر باعتبار عام.

إن تكلمنا عن المفاهيم يجزنا حتما إلى التكلم عن علاقة الهوية بالثقافة، الثقافة ذلك الشيء المكتسب لا تمت بصلة إلى المسائل الغريزية أو الجسدية في الإنسان. من ثمة فتوحيدها والمحافظة على أنماطها العامة التي لها علاقة بالهوية تظل دائما رهن إرادة الإنسان الراعي بوجوده كفرد في أمة ذات هوية متميزة.

الثقافة:

إن للثقافة جانبين متكاملين هما:

جانب معنوي: والمتمثل في التأمل، التفكير والشعوب والاقتصاد.

جانب سلوكي. مادي: يتمثل في المعاملات في جميع مجالات الحياة "العلائقية"².

مستوى علمي:

وهو خاص بالإنسان مقابل الحيوان وذلك مثل ظاهرة ارتداء الحد الأدنى من الملابس لستر العورة حتى في فصل الصيف وظاهرة اللغة وظاهرة الاعتداء والعلاقات الأسرية...

مستوى وطني:

(نسبة إلى الوطن) أو قومي (نسبة إلى القوم) وهو تخصيص أو انتقال من العام إلى الخاص، من المشترك إلى المتميز أو الانتقال من ظاهرة ارتداء الشباب إلى نوع الثياب بالذات، من قواعد الخلاق إلى نوع القواعد ومحتواها القيمي في ذاتها من ظاهرة النطق إلى نوع اللغة وهذا ما يجعل أنماط الثقافة الوطنية التي هي أساس الهوية الوطنية أو القومية.

علاقة الثقافة باللغة:

إن اللغة عبارة عن "وسيلة إنسانية خالصة وغير غريزية انطلاقاً لتوصيل الأفكار والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي تصدر بطريقة إرادية.

وهي الوسيلة التي بواسطتها يمكن تحليل أي صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها والتي بها يمكن تركيب هذه الصور مرة أخرى في أذهان غيرها بواسطة تأليف كلمات ووضعها في تركيب خاص³.

المثقفون في الهوية والعصرنة:

سوف نتحدث عن المثقف أياً كان وهويته والقراءة الجديدة للعصرنة وإعادة تقسيم الإنتاج الثقافي.

هذه البواعث نجدها في الجزائر كفكرة وطنية بمقوماتها الرئيسية والممونة للهوية الثقافية.

ما هي صلة المثقف بالتراث العربي الإسلامي المتمثل في المسيرة التاريخية للمجتمع أو بالأحرى للحلقات التاريخية للمجتمع التي إن فقدت كتلة واحدة فقد التاريخ كله إلا على سبيل الاستئناس بالأحداث أو الرواية لها؟.

إن ماضي الجزائر ينتهي بالغزو الفرنسي 1830. لأنه بعدها جاء تاريخ آخر فرضته القوة الاستعمارية بغية جعل الجزائر مقاطعة من مقاطعات الدولة الفرنسية وبالتالي إدماجها لتاريخ فرنسي في حقبة فرنسية محددة.

إننا نلاحظ المثقف الجزائري يعاني من ازدواجية في تعايش مجالين ثقافيين بينهما تنازع تاريخي وإيديولوجي.

إن هذه الوضعية لها عراقيلها داخل المؤسسات الثقافية في الجزائر مما يؤدي إلى سوء أداء هذه المؤسسات فالجامعة التي تعتبر النواة الأساسية لبعث الانتلجنسيا إلى ما هي عليه الآن.

ومن ثمة، فالمثقفون وتعاملهم مع مظاهر العصرنة خصوصا في الجامعة التي تعتبر معقل الإبداع والثورة الثقافية. ومظهر من مظاهر الحداثة والعصرنة لا يمكنهم عكس هويتهم الوطنية والثقافية بل قد يعبرون عن عجزهم لملأ الساحة الثقافية المثقلة بالدخيل عن الهوية إن عملية الاقصاء التي أقامها الاستعمار الفرنسي للهوية الثقافية لدى المجتمع الجزائري مست القواعد التأسيسية للخصوصية الثقافية كالاقتصاد الريفي ونظام الحرف التقليدية ثم خنق الطلائع المثقفة المتمثلة في النخب السياسية المتمكنة والمتمرسة، وذلك بمنع استمرارية اللغة العربية وحرق الأرشيف الموجود آنذاك في المكتبات.

إن الدمار الفرنسي كان دماراً حضارياً وثقافياً في مضمونه وذلك من أجل شلّ الجنوب أو الدّول العربية عامة. حتى تصبح فرنسا ومن على شاكلتها تتحكم في بطون وعقول أبناء أمتنا المجيدة.

إن الاعتماد على الاستهلاك الثقافي والاكتفاء والاستيراد من الخارج لا يقل خطورة على التبعية الغذائية وهو تحديد مباشر لأمتنا.

إن المتأمل كتابات مفكرين محدثين أمثال. ماكس فيبر وماخيموسوركين حول ما سمي الانجلوسكسون بالأنثروبولوجيا الثقافية وعند الأوروبيون بسوسيولوجيا المعرفة يتبين له كيف يقيم قادة الفكر المعاصر في الغرب الأنظمة السياسية السائدة في الدول الأوروبية.

إشكالية المثقف والهوية:

إن ثمة علاقة بين المعرفة والسلطة تتجسد في شخصية واحدة ، إنسان واحد. أي أن ثمة التزاوج تلتبس في هيئة محاطة ومحصنة تلك حقيقة واحدة تشار بوجهين فنجد الفراغة حكموا بثنائية المعرفة والسلطة.

إن أرسطو عمد إلى عملية تجانس الأفكار وتكامل الأدوار والطموحات بينه وبين الاسكندر المقدوني الأكبر .

لو تأملنا التاريخ العتيق نجد أن الرجلين قد أرادا توحيد العالم القديم في ظل قيادة مقدونيا، فوضع أرسطو المشروع الفلسفي والنظري لهذه الواحدة التي يمكن لمسها في مجمل فلسفته وفي جزئيتها، وترك للاسكندر الأكبر التنفيذ.

ما قام به أرسطو مع الاسكندر وقبل ذلك مع والده فيليب يعتبر من أشهر العلاقات التفاعلية بين المثقف والسلطة التي شهدها العالم القديم.

إن التناقض الأساسي والثنائية الحادة لا تقوم من حيث أنهم مثقفون، وإنما يقوم التناقض والثنائية أساسا بين المثقفين والإيديولوجيين.

الانتلجنسيا والهوية:

إن لكل ثقافة إنتاج ثقافي مبني حسب ما تمليه عليها الإيديولوجية أو الانتماء الديني أو القومي....

بما أن كل نظرية علمية تنطلق من الملاحظة، فالنظرية الوظيفية تهتم بالتجارب الإنسانية آخذة الوظائف في سيرورتها ومبرزة في الأخير الانتاجات المترتبة عنه.

في نفس الوقت لا ننسى أن هذا التحليل يعرض من الهوية كوسيلة تسمح للإنسان الإحساس بالأني والسلطة⁴ والحصول على تقنيات ويعيش قصد البقاء. بالتالي هو نجده تحليل أنثروبولوجي متميز عن الأنثروبولوجي الأساسي باختصاصه في إبراز الهوية كهيئة ذاتية أو وظيفية.

إذا أردت تحديد مكان الوظيفة لدى المثقف في نشاط الجماعة لكان إلزام تبرير التمايز بين النشاطات ذات الأهداف المختلفة باختلاف الأفكار القرابة في الجماعة لكن التلاقي والإشراك هو في الدور أن الوظيفة التي تمثل الموضوع الثقافي.

قد يحتاج شرح الوجود الفردي التماسا لهويته في حضارتنا أو حضارة أخرى فيجب ربط كل نشاطاته بالموضوع الاجتماعي لحياته المنظمة⁵.

حدود الهوية الثقافية لدى الأنتلجنسيا:

لا تعرف اللغة سوى لمحات أين لا تستطيع إحداها التوسع على الأخرى وبهذا الطريق مقر بها بانقسام غير معروف ولكن بالحضارة يمكننا التطور ومضاعفة الاتصالات بحيث نختار بطريقة توافق ضمنية اللغة التي تكون بمثابة محرك يصلح لكل التنظيم الاجتماعي، فيما يخص جماعيته ويمثل هويته إن أسباب هذا الاختيار عدة: أحيانا تعطي الأفضلية للغة ولسان المنطقة أو الحضارة الأكثر تقدما وإنتاجا للنظم ذات التحول السريع للمجتمعات بحيث تمنح لها سلطة التأطير ويتكلم الفرد وفقها ويصرح بهويتها وأحيانا تعطي للمقاطعة التي حققت انسجامها الاجتماعي وعملت على تأكيده بطرح الفروقات الأثنية أو الثقافية كثانويات لفرض التماثل بهوية تحققها السلطة السياسية لقد سلمنا أن الهوية لا تتحدد سوى باللغة التقنية وذات القواعد قد تتحرك في معناه لتتمسك بمحددات أخرى كاللهجة أو التعبير الثقافي المؤلف بأنساق حاملة لعادات وأعراف تنظيمية لذا فاللغة المصريح بها في مجتمع يعني هي اللغة المشتركة وباقي اللغات المحلية تبقى غالبا ما تعبر عن مرجعيات ثقافية والسبب في جعلها ثانوية هو الاتصال ذو الهدف التداخلي بحيث أن عملية التثاقف بين منطقة لغات مختلفة أخرى تتطلب التواصل.

إن الجزائر تنتمي إلى الشمال في الأصل فلما يتكلم الجزائريون اللغة العربية؟

هل هذا نكران لهويتهم التاريخية؟ أم أنه اتصال ثقافي كان انتقاله تجاريا أو عبر فتوحات سمحت بتساكن اللغة العربية مع اللغات المحلية؟

إذا عاينا الشمولية من زاوية الاختلاف اللغوي قد نتوصل إلى فكرة القائلة:

بأن السواء يتحقق للغة الغالبة اتصالا وثقافة وتأطيرًا بحيث أن اللغة إذا مورست أنتجت تنظيمات ولا يمكن كبح استمراريتها وخاصة إذا كانت نصح من طرف أفرادهم نفسيا وثقافيا ويؤكدون سلكتها لما فيه من خصائص.

إن التعددية المطلقة تطرح مشكلا علمي نظري يعكس التعددية في القرابة⁶.

تضعنا على ميدان الملاحظة وتقودنا إلى الوحدة فالتساكن لمدة طويلة للغات شتى يفسر مدى تعايش الثقافات شتى.

وكلمة ثقافة هي كلمة غامضة، أين اجتهد الفلاسفة والمؤرخون وعلماء الاجتماع في إعطائها تعاريف مختلفة.

الهوامش:

1-A . GRAMSCI : GRAMSCI dans le texte édition social, p-602 , 1975.

2-Ibid, p604.

3- عبد العزيز عبد الحميد، اللغة العربية ، دار المعارف بمصر 1961، ط3، الجزء الأول ، ص 26.

4- السلطة الفردية، إذا كان الممثل فردا أو جماعة إذا كان الممثل جماعة.

5-Malinowski Bromislan : une théorie scientifique de, edfrançois, Maopero, Paris, 1961, p44 .

6- تعني الهوية.